

التغلغل الاستعماري في الصحراء المغربية أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلادي وردود الفعل المخزنية

عبد اللطيف قصور

أستاذ الثانوي التأهيلي

باحث في تاريخ المغرب بكلية علوم التربية
جامعة محمد الخامس - المملكة المغربية



مُلخَص

يروم هذا المقال تسليط الضوء على محطة هامة وحاسمة في تاريخ الصحراء المغربية وهي تلك المرتبطة بالسياق التاريخي للتغلغل الاستعماري الأوربي فيها، ولاسيما الإسباني والفرنسي منه، فضلاً عن الأطماع الإنجليزية أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، في مقابل ردود الفعل المغربية الرسمية -ردود المخزن المغربي- التي واجهت ذلك التغلغل في حينه وسط ظروف جسدت انسجاماً بين الجهود الرسمية للمخزن المغربي وممثليه بالصحراء، بغية تقدير الجهود الكبيرة التي بذلها المخزن المغربي دفاعاً على مناطقه الصحراوية آنذاك رغم وجود عراقيل جمة ترتبط في بعض جوانبها بإشكالية بعد المسافة الجغرافية بين عاصمة المغرب الممثلة في مدينة فاس والمناطق الصحراوية وما تطلبه من وقت زمني لتتنقل المحلات السلطانية وكذا الرسل أو العيون وغيرهم، وضرورة مراقبة مجمل الأحداث التي تتعرض لها هذه المناطق لا سيما النشاطات الأجنبية واتخاذ الإجراءات والتدابير المناسبة لإفضال تلك النشاطات أو مواجهة أي مظاهر للتسرب أو تغلغل الاستعماري في الصحراء.

كلمات مفتاحية:

الصحراء المغربية، التغلغل الاستعماري، ردود الفعل المخزنية، تاريخ المغرب الحديث، الاستعمار الأوربي

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٤ يناير ٢٠٢٤
تاريخ قبول النشر: ٢٣ فبراير ٢٠٢٤



10.21608/KAN.2024.260557 **معرف الوثيقة الرقمي:**

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عبد اللطيف قصور. "التغلغل الاستعماري في الصحراء المغربية أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين الميلادي وردود الفعل المخزنية". دورية كان التاريخية. - السنة السابعة عشرة- العدد الثالث والستون: مارس ٢٠٢٤. ص ١٢٤ - ١٣١.



Twitter: <http://twitter.com/kanhistorique>

Facebook Page: <https://www.facebook.com/historicalkan>

Facebook Group: <https://www.facebook.com/groups/kanhistorique>

Corresponding author: abdellatifkassor89@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: <https://kan.journals.ekb.eg>

This article is distributed under the terms of the Creative Commons Attribution 4.0 International License (<https://creativecommons.org/licenses/by-nc-nd/4.0/>), which permits unrestricted use, distribution, and reproduction in any medium, provided you give appropriate credit to the original author(s) and the source, provide a link to the Creative Commons license, and indicate if changes were made. نُشر هذا المقال في دورية كان التاريخية للأغراض العلمية والبحثية فقط، وغير مسموح بإعادة النسخ والنشر والتوزيع لأغراض تجارية أو ربحية.

مُقَدِّمَةٌ

الأوربية وقبل أن تكلل بفرض توقيع عقد الحماية على المغرب في ٣٠ مارس ١٩١٢ كانت قد استبقت ذلك بتغلغلات استعمارية واحتلالات وضربات عسكرية متفرقة في جغرافية التراب المغربي كاحتلال وجدة من طرف فرنسا سنة ١٩٠٧ والعرائش من طرف إسبانيا، غير أن التسرب الاستعماري الأوربي للصحراء المغربية كان قبل هذه الاحتلالات السالفة الذكر وتعود جذوره المعاصرة إلى النصف الأول من القرن التاسع عشر الميلادي على الأقل وإلى مطلع القرن الموالي.

وبالتساوق مع هذا التسلط الاستعماري انبرت مقاومات مغربية متعددة لصدده ودحره على غرار المقاومة بالريف والأطلس المتوسط والمقاومة الصحراوية وغيرها، على أن المخزن المغربي لم يكن في موقع المتفرج من مجريات هذه الأحداث في الفترة المعاصرة وما قبلها أيضاً فقد سبق له أن لقن الغزاة الأوربيين الطامعين في تملك التراب المغربي دروساً حربية قاسية - معركة وادي المخازن^(٧) - في أوقات مبكرة ونعني بها المرحلة الأولى ١٤١٥ - ١٤٣٤ التي دشنتها وصول البعثات التجارية والعلمية والاستكشافية مع بواكير الحقبة الحديثة بقيادة البرتغال أبرز الطامعين آنذاك، ومهما يكن فقد دقت هذه المرحلة ناقوس خطر أعطى إشارة البدء لمسلسل طويل من التدخل الأوربي في التراب المغربي وردود الفعل الرسمية والشعبية المغربية، يقول المؤرخ الفرنسي جاك هيرس في هذا الصدد "لقد بدأ كل شيء لما وضع البرتغاليون أقدامهم بمدينة سبتة سنة ١٤١٥، إذ انطلقوا فيما بعد لتأسيس سلسلة من المراكز التجارية"^(٨).

بيد أن جذوة حماس البرتغاليين قد خبت لاحقاً في الوقت الذي تعاضمت فيه أطماع الفرنسيين والإسبان والإنجليز وأواخر القرن التاسع عشر، فعمدوا إلى استهداف السيادة الترابية المغربية في العديد من المناطق ومن ضمنها الأقاليم الصحراوية الجنوبية، وبالتساوق مع الشح المصدري الذي يسم الكتابة التاريخية وطابع التخصيص في المراجع - اللهم ما ندر منها- حول موضوع المقال، يأتي هذا الأخير كمساهمة شخصية نبغي من وراءها إنارة ما أمكن من النقط الظليلة حول تاريخ التغلغل والاستعمار الأجنبي في

ابتداءً يمكننا القول -لأن توطين الموقع الجغرافي مكمل للأبحاث التاريخية- أن إعطاء تحديد جغرافي دقيق ومفصل للصحراء المغربية يعتبر أمراً صعباً، ومرد الصعوبة إلى اتساع الرقعة الجغرافية التي تشغلها إذ تزيد عن ٢٧٠٠٠٠٠ كيلومتر مربع، يضاف إلى هذا شح الدراسات المتكاملة التي تتعرض للمنطقة وظروفها الطبيعية^(١) فهذا الإقليم المغربي المتميز يقع جنوب المغرب ويحده إقليم طرفاية في الشمال، وموريتانيا في الجنوب وفي الشرق منطقة تندوف^(٢) وغرباً المحيط الأطلسي، وتتقسم الصحراء المغربية إلى منطقتين رئيسيتين هما:

- منطقة الساقية الحمراء: وتبلغ مساحتها ٨٢٠٠٠ كيلومتر مربع، ومن أهم مدنها مدينة السمارة التي بناها ماء العينين^(٣) أواخر القرن التاسع عشر الميلادي ومدينة العيون التي أسسها الكولونيل الإسباني (Antonio de ORO) سنة ١٩٣٨.

- منطقة وادي الذهب: التي أطلق عليها الإسبان اسم ريودي أورو (Rio de ORO)، تقع جنوب منطقة الساقية الحمراء ومن أهم مدنها مدينة الداخلة، (فيلا سيسينيروس) سابقاً التي أسسها الإسباني (Emilio Bonelli) سنة ١٨٨٤^(٤).

كما أن الصحراء المغربية تحظى بموقع استراتيجي هام سواء لطول سواحلها أو قربها من جزر الخالدات (كنارياس) التي تشكل معها مضيقاً^(٥) تمر عبره الخطوط البحرية المتجهة شمالاً وجنوباً، ونذكر هنا أن الشاطئ الشمالي لا يبعد عن جزيرة فويرتيفانتور إلا بمائة كيلومتر ويفصل بين ميناء العيون ولاس بالماس ب ٢٠٠ كيلومتر فقط.^(٦) وبالعودة لموضوعنا حول التغلغل الاستعماري الأوربي للصحراء المغربية وردود الفعل المغربية الرسمية ، أمكن لنا طرح الاستنتاج البديهي التالي، وملخصه أنه منذ أن شارف القرن التاسع عشر الميلادي على الانتهاء ومع بدايات القرن العشرين الميلادي قد لاح للعيان أن دولا أوربية بعينها -إسبانيا وفرنسا وبدرجة أقل بريطانيا - كانت تسابق الزمن لفرض واقع الاحتلال على المغرب، وأن هذه المساعي

وانتهت مفاوضات المغرب - التي قادها الأمير مولاي العباس أخ السلطان - مع الإسبان في شخص المرشال أودنيل رئيس المجلس الحربي الإسباني بالفشل الذريع، بسبب مطالب إسبانيا المشتتة^(١٢) التي رفضها العباس جملة وتفصيلاً، كما يظهر من رسالته إلى أخيه التي جاء فيها "... إنما شرطه الإسبان لا يقبل ولو بقي من الإنسان نفسه، وسيدنا يعلم من هذا أن هذا العدو لازال جادا في العيب..."^(١٣)، ولم تستأنف المفاوضات بين المغرب وإسبانيا بسبب تعنت الأخيرة إلا في عهد الملك الإسباني ألفونسو الثاني عشر الذي تولى العرش سنة ١٨٧٥ ونظيره السلطان المغربي الذي بدأ عهد توليه العرش سنة ١٨٧٣، وهكذا تم الاتفاق في مدريد على إيفاد بعثة مغربية إسبانية مشتركة إلى سواحل المغرب الجنوبية قصد تعيين مركز الصيد الذي أسسه هيريرا والسماح للإسبان باستغلاله بموافقة سلطان المغرب دون أن تتضمن الموافقة التنازل النهائي عن جزء من التراب المغربي^(١٤).

وألت جهود البعثة الأولى إلى الفشل في تحديد موقع حصن هيريرا، أمام معارضة دبلوماسية ذكية^(١٥) من السلطان الحسن الأول، فطالبت إسبانيا بساحل إفني^(١٦)، ولتعزيز زعمها القائل بأن هذا الأخير هو الموقع الذي تبحث عنه عمدت إلى الاتصال ببعض الأهالي وخذاعهم بقولها إنها تبحث هناك عن موقع مرسى بتفويض من السلطان وأغرتهم بالمال وعقدت معهم اتفاقاً في ٢١ أبريل ١٨٧٨^(١٧)، وقد حدث ذلك بعيداً عن أنظار المخزن بسبب الصعوبات التي يفرضها الوصول إلى الصحراء أو عبورها أو مراقبتها^(١٨).

ثم عرض السلطان الحسن الأول مبلغ ١٥ مليون فرنك نظير حذف المادة الثامنة من معاهدة ١٨٦٠، وهو العرض الذي قوبل برفض إسباني، وسعيًا منه للتخفيف من حدة التوتر قرر السلطان إيفاد بعثة مغربية أخرى إلى مدريد، نتج عن مفاوضاتها التوصل لاتفاق قضى بإرسال بعثة مشتركة أخرى للبحث عن الموقع، وقد وصلت هذه البعثة على ظهر السفينة (Ligeria) في يوليو من سنة ١٨٨٣ إلى مرسى الصويرة ثم اتجهت نحو سواحل المغربية الجنوبية، لتنتهي جهود بحثها مجدداً بالفشل^(١٩).

الصحراء المغربية وكذا الردود المخزنية تجاه هذه الأحداث والوقائع التاريخية.

أولاً: التغلغل الإسباني في صحراء المغرب وردود الفعل المغربية الرسمية

تجلى الاهتمام الإسباني بالتغلغل في السواحل الجنوبية للمغرب منذ وقت مبكر في نهايات القرن ١٥ في سياق السباق الاستعماري البرتغالي الإسباني، وهكذا بعد احتلال إسبانيا لجزر الكنارياس سنة ١٤٧٦ تمكن ديبغو غارثيا هيريرا كوخاً خشبياً لجس نبض السكان أطلق عليه اسم سانتا كروز دي ماريكيينا (Santa Cruz de Marpequena) أي الصليب المقدس للبحر الصغير، غير أن سنة ١٥٢٤ ظلت عالقة في الذاكرة الإسبانية والمغربية إذ عرفت حدثاً هاماً أوقف التناول الإسباني على الصحراء المغربية، حيث هاجمت القبائل الصحراوية حصن هيريرا وأضرمت فيه النار وغنمت معداته الحربية لتنتهي أسطورة هذا الحصن إلى حدود ١٨٦٠ على الأقل^(٢٠).

وعلى عهد سيدي محمد بن عبد الله جرت سنة ١٧٨٥ محاولات لتحرير أسرى أمريكا الشمالية، وبعض الغرقى الناجين في واد نون، وذلك في إطار سياسة الانفتاح الدبلوماسي التي نهجها هذا السلطان تجاه إسبانيا لإيجاد حلول للمشاكل العالقة بين البلدين^(٢١)، بيد أنه مع حلول سنة ١٨٦٠ ستعود الآلة الحربية الإسبانية إلى إحياء أسطورة الحصن بعد انتصارها على المغرب في حرب تطوان ١٨٥٩-١٨٦٠، فقد نصت المادة الثامنة من بنود الصلح الذي أعقب هذه الحرب في ٢٦ أبريل ١٨٦٠ على مساعدة السلطان سيدي محمد بن عبد الرحمان (١٨٥٩-١٨٧٣) الإسبان على بناء مركز للصيد البحري في سواحل بلاده الجنوبية، في المقابل كان الإسبان يدعون أن البند الثامن المذكور كان ينص على تخلي سلطان المغرب لهم على قطعة من أرض الصحراء المغربية إلى الأبد وهذا هو جوهر المشاكل، فالنص العربي الذي بحوزة المغرب يتضمن كلمة مساعدة على بناء المركز وليس التخلي التام إلى الأبد^(٢٢).

المنطقة^(٢٣)، أما السلطان الحسن الأول فرغم انشغاله بالقتال الداخلي وما حققته ظاهرة الحماية القنصلية من أضرار بالبلاد، بالإضافة إلى توتر علاقته ببريطانيا، بعد استقرار هذه الأخيرة بساحل طرفاية منذ ١٨٧٨، فقد بذل قصارى جهده للدفاع عن وحدة بلاده خاصة في الأقاليم الجنوبية^(٢٤) فقاد حركة نحو الجنوب لردع تحركات الإسبان، وفور وصوله إلى بلاد وادي نون في ١٢ ماي ١٨٨٦، وفدت عليه جموع من شيوخ وأعيان وفقهاء القبائل الصحراوية، وجددوا بيعته له، وكلفهم بتشكيل فرق لحراسة السواحل الجنوبية ومنع السفن الأجنبية من الرسو، وتنفيذا لأوامر السلطان أغار القائد دحمان ولد بيروك على أهل الساحل سنة ١٨٨٩، واستولى على متاعهم وجيادهم وعبر واد الساقية الحمراء لمعاينة العناصر القبلية المتعاونة مع الأجانب^(٢٥).

وهكذا لم تجد إسبانيا بدءاً من تلطيف الأجواء مع المغرب أمام الهجمات المستمرة والمتكررة على مراكزها في وادي الذهب^(٢٦)، وبفضل سياسة السلطان وممثليه الحازمة في الصحراء انكمش الوجود الإسباني بساحل وادي الذهب، ولم تجرؤ إسبانيا على القيام بمغامرة في الصحراء إلا في سنة ١٩١٦ بعد تمكن حاكمها العسكري والسياسي الليوتنانت كولونيل فرانسيسكو بنس (Francisco bens) من بناء مركز عسكري بساحل طرفاية^(٢٧).

ثانياً: التغلغل الفرنسي - في صحراء المغرب، وردود الفعل المغربية الرسمية

يمكن القول أنه خلال الخمسة عشر سنة الأولى التي عرفت سيطرة فرنسا على الجزائر منذ ١٨٣٠م، فإن الفرنسيين لم يولوا أهمية كبيرة للصحراء لانشغالهم بقمع مقاومة عبد القادر الجزائري من جهة، وتوطيد نفوذهم في ممتلكات الأتراك الجزائريين من جهة ثانية^(٢٨) وحتى عندما سحقت مدفعية المرشال بيجو جيش السلطان عبد الرحمن بن هشام في معركة إيسلي بتاريخ ١٤ غشت ١٨٤٤، ووقع المغرب على معاهدة للامغنية بتاريخ ١٨ مارس ١٨٤٥، والتي عينت الحدود بين المغرب والجزائر المحتلة آنذاك في جو من الغموض

فوجهت الحكومة الإسبانية لوزيرها بطنجة أمراً يقضي بالإسراع للحصول على موافقة السلطان الحسن الأول للتنازل لها على ساحل إفني، وهو ما رفضه السلطان، لكنه بالمقابل فتح مجالاً آخر للحوار، فقدم مساعدته للإسبان على بناء مركز للصيد في ساحل إفني معتبراً ذلك أنه لا يعني التنازل عن سلطته في هذه المناطق، بيد أن الوزير "ديو سزادو" كان يترجم مقترح السلطان إلى حكومته بعبارات التنازل عن ساحل إفني مما جعل الحسن الأول يستشيط غضباً، ووجه رسالة إلى محمد بركاش قال فيها: "... وأما الحيازة فلا، ويعلموهم بأن خديمتنا الطالب عبد السلام السوسي كان اتفق مع منويل سلبل على توجيه المعنيين للبحث عن المحل وحيث يحققونه ويرجعون تكون حيازته على يد الدولتين على الوجه المناسب...."^(٢٩)، وبذلك كان نصيب هذه البعثة في مسعاها الفشل أيضاً.

غير أن حماس إسبانيا لإيجاد موطن قدم لها في أقاليم المغرب الجنوبية لم يتوقف إذ تمكن الملازم إميليو بونيللي Emilio Bonelli من تأسيس ثلاثة أكواخ خشبية قصد التجارة من جهة وجس نبض الساكنة من جهة أخرى، وذلك في منطقة وادي الذهب والمناطق المجاورة لها رغم المقاومة المستميتة التي اعترضت طريقه، وطلب من حكومة مدريد إعلان حمايتها على وادي الذهب، فترددت هذه الأخيرة مدة ثلاثة وخمسين يوماً قبل الإعلان عن رأيها، مما يجعلنا نطرح سؤالاً جوهرياً عن قانونية هذه الحماية الإسبانية المزعومة على سواحل وادي الذهب المغربية^(٣٠)، وللخروج من هذه الورطة، وبعد أن أصبحت السفن الإسبانية تصل إلى إقليم وادي الذهب تباعاً منذ سنة ١٨٨٤، أبلغت إسبانيا القوى الأوروبية خبر بسط حمايتها على هذه المناطق الساحلية بتاريخ ٢٦ يناير ١٨٨٤^(٣١).

وأخذت البعثات الإسبانية تصل إلى المنطقة بهدف تسريع وثيرة التوغل في المناطق المغربية الداخلية وأهمها بعثة مارس وأبريل سنة ١٨٨٦م والتي أحبطت جهودها أمام محاربي أولاد دليم وبعثة ماي ويوليوز ١٨٨٦، برئاسة (Julio Cervera)، وتمكن أعضاء هذه البعثة من زيارة منطقة كركر ومناطق أخرى لكنهم تراجعوا بعد تهديدتهم بالقتل من طرف سكان

فاستجد أهل توات المغاربة بالسلطان الحسن الأول بسبب تخريب فرنسا قصورهم لدفعهم للهجرة فجهز السلطان حركة نحو تافيلالت سنة ١٨٩٣، وعند وصوله قدم إليه وفود من أعيان توات وتديكلت وكورارة برئاسة أبي حسون بن الحاج محمد فجددوا له البيعة والولاء كما أمرهم بمنع عمليات البيع والشراء مع الفرنسيين^(٣٨)، وأول ما قام به الحسن الأول أمام التحرشات الفرنسية في واحة توات^(٣٩)، هو أنه عمل على تدويل هذه المسألة، فبعث بخصوص ذلك رسائل احتجاج واستنكار للحكومة الفرنسية وبرهن لها بالحجج والوثائق على مغربية هذه المناطق، كما أجرى اتصالات مع ممثلي الدول الأوروبية المعتمدين بطنجة خاصة إسبانيا وإيطاليا وبريطانيا وتوصل إلى إقناعهم بالتوقيع على مذكرة مارس ١٨٨٧ حول وحدة البلاد المغربية.

وقام السلطان بتعزيز حامية فيكر وأرسل حامية عسكرية نحو واحة تديكلت ونصب عاملاً على كورارة في يناير ١٨٩٢، وهو محمد أوسالو، وبالمقابل وفد عليه أهالي المنطقة وطلبوا منه السلاح والذخيرة لمواجهة التغلغل الفرنسي من جهة وتجديد السبعة له من جهة ثانية فحثهم على توحيد صفوفهم لإحباط المشاريع الفرنسية الاستعمارية^(٤٠)، غير أن ذلك لم يزد فرنسا إلا إصراراً على تنفيذ مشاريعها التوسعية، وقد كان حدث وفاة الحسن الأول سنة ١٨٩٤ هو الحدث البارز الذي شجع فرنسا على تسريع وثيرة تنفيذ مشاريعها الاستعمارية ضد المغرب، إذ خلفه على العرش ابنه عبد العزيز، وهو في عمر ١٦ سنة بخبرة سياسية تكاد تكون منعدمة، حيث يذكر المؤرخون أن أبا أحمد (باحمد) الحاجب الملكي في عهد السلطان الحسن الأول، كان سياسياً ماكرًا، أخذ بزمام الأمور لنفسه ونحى المولى محمد الذي كان ولياً للعهد وأجلس مكانه المولى عبد العزيز^(٤١).

ثم سارعت فرنسا بعد احتلال واحة توات المغربية منذ ١٩٠٠ إلى احتلال العديد من النقاط على طول وادي زوزفانة جنوب شرق فكيك^(٤٢) ووادي الساوره غرب توات لتضمن بذلك ربط توات بالجزائر^(٤٣)، وفي السنة السالفة الذكر حاول عدة فرنسيين دخول أدرار، فاعتقلهم السكان، واعتبر مؤلف كتاب الجأش الربيط

والإلتباس^(٣٩) فقد كان الفرنسيون يجهلون الجنوب، وكان رأي الحاكم العام للجزائر آنذاك في المناطق الجنوبية الصحراوية على النحو التالي "أن هذه الصحراء في نظرنا تشكل شيئاً يشبه بحراً مشتركاً بين البلدين الجزائر المحتلة والمغرب... إننا نفكر كأسلافنا الأتراك في أن نقصر احتلالنا على التل، إن الأحداث لم تدفعنا لمحاذاة Les Huts Plateaux (الهضاب العليا) إنها بالنسبة لنا عتبة الصحراء"^(٤٠)، وهكذا منذ سنة ١٨٧٨ عندما ظهر مشروع المهندس دويونشيل عن سكة حديد الجزائر تومبوكتو عبر الصحراء، أصبح التوغل في الصحراء شعاراً لفرنسا، فبدأت أعمال استطلاع قام بها الكولونيل فلاتزر، لصالح هذا المشروع ولكنه قتل سنة ١٨٨١ وتلت ذلك حركات ثورية بتحريض من المرابط "بوعمامة"^(٤١) دفعت فرنسا إلى احتلال الزاب^(٤٢).

ثم قامت فرنسا بتجهيز بعثات استكشافية وإرسالها إلى الصحراء المغربية بهدف إعداد تقارير استخباراتية عن المركز التجاري الذي أسسه البريطانيون منذ ١٩٧٨ في ساحل طرفاية ونظيره الإسباني الذي تم تأسيسه بساحل وادي الذهب منذ ١٨٨٤^(٤٣)، واختارت لهذه المهمة المغامر كامبي دولس (Camille Douls)^(٤٤) الذي سبق له زار المغرب سنة ١٨٨٥، وقد تمكن دولس من التسلل إلى وادي الذهب وعقد صفقات تجارية مع أولاد دليم بعد انتحاله صفة تاجر مسلم قادم من الجزائر، ورغم أن شيوخ الصحراء بمن فيهم ماء العينين^(٤٥) قد اختبروا إسلامه، فقد اجتاز الاختبار بنجاح، قبل أن يكتشف أمره أثناء رحلة له نحو حوض نهر النيجر ويتعرض للقتل سنة ١٨٨٨.

ورغم مقتل دولس واصلت فرنسا إرسال بعثاتها للصحراء المغربية، فجهزت بعثة جديدة سنة ١٨٩٣ بقيادة كاستون دونيت (Gaston Donnet) وأرسلته للتجسس على مركز البريطانيين (Port victoria) في ساحل طرفاية^(٤٦)، وخلال هذه الفترة استهدف المخطط الاستعماري الفرنسي إخضاع مجموع الجنوب الشرقي المغربي، الذي يعتبر منفذاً في اتجاه الجنوب الصحراوي المغربي فأقدمت فرنسا على تشكيل عدة فرق عسكرية كلفت كل واحدة منها باحتلال واحة من الواحات الجنوبية الشرقية: تيدكلت والزوزفانة وتيكورارين^(٤٧).

فقرر السلطان نهج أسلوب المفاوضات لاسترجاع ساحل طرفاية وتطهيره من براثن الأجنبي، فاستغل فرصة تواجد بمدينة طنجة لمعاينة الأسطول البريطاني، واجتمع بالوزير كرين وعبر له عن رغبته في حل المشاكل العالقة مع الحكومة البريطانية بخصوص مسألة المركز المقام في ساحل طرفاية وعرض عليه مبلغ ٥٠ ألف جنيه لقاء ذلك، واشترط^(٤٩) عليه أن يكون هذا المبلغ مقسما على خمسة أقساط سنوية قيمة كل قسط ١٠ آلاف جنيه^(٥٠)، فوافقت بريطانيا على مضمض، وذلك بسبب الحصار الاقتصادي الذي ضربه عليها قائد السلطان في الجنوب دحمان ولد بيروك، ورغم أن ساحل طرفاية لم يعد بصفة نهائية إلى رحاب المغرب إلا في عهد السلطان عبد العزيز ١٨٩٤-١٩٠٧ فإن المفاوضات العسيرة التي قادها السلطان الحسن الأول تشهد على نضاله المستميت للدفاع عن تراب المغرب الجنوبي، فكان من أهم نتائج التفاوض الاعتراف بسيادة السلطان المغربي على الأراضي الواقعة بين وادي درعة ورأس بوجدور^(٥١).

كما تجب الإشارة إلى مسألة مهمة وهي أن الدولة الأوربية المتنافسة على الترب المغربي في مناطقه الجنوبية الصحراوية ونخص بالذكر فرنسا وإسبانيا بريطانيا عندما تصادمت مصالحها في هذه المناطق قد لجأت في إبرام العديد من الاتفاقيات فيما بينها والتي منحها مرونة أكثر في تحركاتها الاستعمارية، فإسبانيا كانت تلهث بحثا عن تعويضات في إفريقيا بعد أن فقدت مستعمراتها في أمريكا اللاتينية سنة ١٨٩٨، وهكذا بعدما خصت فرنسا نفسها في يوليو من سنة ١٩٠٠ بمجموع موريتانيا الحالية، فإنها تخلت للإسبان عن شواطئ كركر وترس الجدياء الواقعة بين وادي الذهب ورأس بوجدور^(٥٢)، فتم إبرام اتفاقية ٢٧ يونيو ١٩٠٠ بين فرنسا وإسبانيا الخاصة بتحديد الممتلكات الإسبانية والفرنسية في إفريقيا الغربية، وساحل الصحراء وخليج غينيا^(٥٣).

وسجلت سنة ١٩٠٤ اتفاقاً آخر على حساب المغرب ومصر وهو الاتفاق الإنجليزي الفرنسي الودي بتاريخ ٨ أبريل ١٩٠٤ الذي أطلق يد فرنسا في المغرب ويد بريطانيا في مصر وذلك في جو من السرية التامة،

(محمد الإمام) أن هذه أول مرحلة في الاهتمام الأوربي بما كان معروفاً بشنقيط^(٤٤) غير أن سياسة فرنسا ضد المغرب لن تقف عند هذا الحد.

ثالثاً: أطماع بريطانيا في الصحراء المغربية

من الجدير بالذكر في البداية أن بريطانيا قد دخلت بدورها دائرة الاهتمام الأوربي بسواحل الصحراء المغربية، وهو ما شهد عليه حوادث غرق بعض السفن الإنجليزية قبالة السواحل الجنوبية، كالبخرة التي كانت متوجهة إلى البرازيل وغرق في رأس بجدور في أوائل سنة ١٧٧٧، حيث أنقذ السلطان سيدي محمد بن عبد الله كل أفراد طاقمها البالغ عددهم ١٣، وياتوا يشكلون مشكلاً بالنسبة لإنجلترا لمدة طويلة قبل أن تتسلمهم من المغرب^(٤٥)، ومع ذلك يبقى وقت بداية الاهتمام الإنجليزي بصحراء المغرب غير معروف على وجه التدقيق، إلا أنه خلال ١٠ أبريل سنة ١٨٧٩ قد تمكن تاجر بريطاني يدعى دونالد ماكنزي من إبرام اتفاق مع بعض شيوخ القبائل في طرفاية، لفتح منافذ للتجارة بين منطقة وادي نون وبريطانيا بعد إغرائهم بالهدايا الثمينة.

فاستشاط السلطان الحسن الأول غضبا واستدعى ممثل بريطانيا بالمغرب جون دريموند هاي^(٤٦) للاحتجاج على انتهاك بريطانيا لسيادة السلطان على تلك المناطق، غير أن هاي فاجأ السلطان الحسن الأول بإعلانه أن ساحل طرفاية لا يقع تحت سيادته، فقرر السلطان دعم سيادته على كل الأقاليم الجنوبية ضد الأعداء فأصدر ظهيرا حسنيا عين بمقتضاه ماء العينين نائباً عنه في الصحراء وبلاد سوس، ورغم كل هذه الإجراءات والاحتجاجات واصل ماكنزي نشاطاته التجارية، فهاجمت قبيلة إزركين كوخه الخشبي وأحرقته، فأثنى السلطان على تصديها لمخططات ماكنزي^(٤٧) ثم قام هذا الأخير بتحصين نفسه بالأسلحة والمدافع، ورغم خسائره الفادحة في العتاد والأرواح فقد واصل محاولاته، ولم يستسلم للأمر الواقع خشية التعرض للإنتقاد من شركائه في لندن^(٤٨)، الذين كانوا يزودونه بما يحتاج من أموال لمواصلة نشاطاته.

الإحالات المرجعية:

- (١) نور الدين بلحداد، **التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية** (١٩٣٤ - ١٨٦٠)، سلسلة أطروحات ٢ منشورات معهد الدراسات الإفريقية، مطبعة المعارف الجديدة، ٢٠٠٨، ص ١٣.
- (٢) **مركز صحراوي** ذكره البكري باسم تندفس ويقع جنوب حمادة درعة حيث يشرف على سبخة شاسعة، تاريخياً كان تابع لسلطان المغرب قبل أن تلحقه فرنسا بمستعمرتها الجزائر، وقد اشتهرت قبائله بالولاء للمغرب وخاصة أسرة ابن الأعمش الذي درس ماء العينين.
- (٣) هو محمد المصطفى الملقب بماء العينين الابن الثاني عشر لمحمد فاضل بن مامين مؤسس الطريقة الفاضلية، أبرز ممثلي المخزن في الصحراء المغربية خلال القرن ١٩ وأهم وجوه المقاومة المغربية بهذه الأخيرة.
- (٤) نور الدين بلحداد، **التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية** (١٩٣٤ - ١٨٦٠)، م. س. ص، ١٦ - ١٤.
- (٥) **المضيق** هو ممر بحري طبيعي يفصل بين يابستين، إذا شقه الإنسان يسمى قناة مثل قناة السويس.
- (٦) فوزي الجود، **الساقية الحمراء ووادي الذهب معلومات عامة وأضواء على التطورات السياسية فيها**، ص: ١٣، بدون تاريخ.
- (٧) معركة حدثت سنة ١٥٧٨ وتمكن فيها السعديون المغاربة من إلحاق هزيمة ساحقة بالبرتغال.
- (٨) محمد حبيدة، **تاريخ أوربا من الفيودالية إلى الأنوار**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الطبعة الأولى، الرباط، ١٤٣٤/٢٠١١، ص: ١١٣.
- (٩) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير الطبعة الأولى، الرباط، ٢٠١١، ص ٦١-٦٣.
- (١٠) رامون لوريودياث، **السياسة الخارجية للمغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله، الجزء الثاني**، منشورات الزمن، الإشراف العام عبد الكبير العلوي الإسماعيلي، ترجمة د. مولاي أحمد الكمون وود. بديعه الخرازي، مقدمة الترجمة د. جمال حيمر، نشر بدعم المديرية العامة للكتاب والأرشيف والمكتبات التابعة لوزارة الثقافة الإسبانية، الطبعة الأولى ٢٠١٢ - النجاح الجديدة، الدار البيضاء ص ١٩٩ - ٢٠٠.
- (١١) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص، ٦٨.
- (١٢) من بين ما طالبت به إسبانيا إعدام ١٢ رجلاً من قبائل أنجرة التي اعتبرتهم مسؤولين عن هدم سور العسة الذي شيده الإسبان في حدود سبتة المحتلة من الحجارة وذلك أمام الملأ ليكونوا عبرة لغيرهم حسب زعمها.
- (١٣) محمد داوود، **تاريخ تطوان**، الجزء الرابع، تحقيق حسناء محمد داوود، مطبعة الخليج العربي، بدعم من وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، طبعة ٢٠٠٦، ص ٢٥٥.
- (١٤) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٧٢ - ٧٠.
- (١٥) كان السلطان الحسن الأول على قدر كبير من الحنكة الدبلوماسية والسياسية بشهادة معاصريه، فكلن يعد الإسبان مرة بتطبيق مضمون المادة الثامنة من معاهدة صلح تطوان ١٨٦٠، ويتغافل ذلك في مناسبات أخرى
- (١٦) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص، ٧٣.

وأبرم اتفاق سري آخر بين فرنسا وإسبانيا في ٣ أكتوبر سنة ١٩٠٤ بين وزير فرنسا في الخارجية ديلكاسي والسفير الإسباني دي ليون كاستيو، ويتكون من ١٦ فصلاً وعينت في فصله الرابع حدود إيفني^(٥٤).

خاتمة

يبدو إذن أن جهود الدول الأوروبية الاستعمارية قد تضافرت بشكل لافت أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين، فاعتمدت كل دولة على حدة - فرنسا بريطانيا على الخصوص - سياسة متشابهة بالاعتماد على إرسال البعثات التجارية والعلمية الممهدة للاستعمار الفعلي للمناطق المستهدفة في أقاليم المغرب الجنوبية وعندما تصادمت مصالحها في هذه الأقاليم لجأت إلى توقيع عدة اتفاقيات لتدبير تحركاتها، ونجحت في الأخير في التسرب إلى هذه المناطق المغربية رغم المقاومة المستميتة التي أبدتها على الأخص السلطان الحسن الأول، غير أن التدخل الاستعماري في هذه المناطق لم يحدث دون اندلاع مقاومة موازية له، هي الجنوب التي قادتها القبائل الصحراوية المغربية، وبعض الزعامات القبلية الصحراوية التقليدية وأبرزها مقاومة الشيخ ماء العينين.

- (٣٥) محمد المصطفى الملقب بماء العينين، هو الابن ١٢ لمحمد فاضل بن مامين مؤسس الطريق الفاضلية من رموز المقاومة المغربية المسلحة في الصحراء، كان ممثلاً للمخزن في الساقية الحمراء.
- (٣٦) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ١٠٩-١٠٧.
- (٣٧) محمد بوكبوط، **مقاومة الهوامش الصراوي للاستعمار (١٩٣٨-١٨٨٠) صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول**، م. س. ص ٢٧.
- (٣٨) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ١١٥.
- (٣٩) توات واحة تكثر فيها أشجار النخيل كانت تابعة للمغرب قبل أن تلحقها فرنسا بالجزائر المحتلة بين سنتي ١٩٠٠ و ١٩٠٣م، وتشكل امتداداً طبيعياً لواجهة تافيلالت.
- (٤٠) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ١١٣-١١٢.
- (٤١) عبد الحق الميرني، **قضايا ووجوه نظرات وتأملات**، مطبعة دار النشر المغربية عين السبع، الطبعة الأولى، الدار البيضاء، ٢٠٠٧، ص ٨٣.
- (٤٢) تنطق فكيك بجيم مصرية وليس فجيح لأن هذه التسمية كان الاستعمار المسؤول عنها.
- (٤٣) روس إن إذن، **المجتمع والمقاومة في الجنوب الشرقي المغربي المواجهة المغربية للإمبريالية الفرنسية ١٨٨١-١٩١٢**، ترجمة أحمد بوحسن، مراجعة عبد الأحد السبتي، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، طبعة ٢٠٠٦، ص ٢٠٦.
- (٤٤) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشد الحديثة، الطبعة الثالثة، الدار البيضاء، الجزء الثالث، ٢٠٠٢، ص ٣١١-٣١٠.
- (٤٥) رامون لوريديوث، **السياسة الخارجية للمغرب في النصف الثاني من القرن الثامن عشر على عهد السلطان سيدي محمد بن عبد الله**، الجزء الثاني، م. س. ص ٤٠.
- (٤٦) هو السرجون دريمونداهي وزير بريطانيا المعتمد في المغرب ويعتبر كبير الهيئة الدبلوماسية الإنجليزية بالمغرب. وكانت تجمع علاقة ود شخصية بالسلطان الحسن الأول.
- (٤٧) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٣٤-٣٣.
- (٤٨) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٣٧.
- (٤٩) هنا أيضاً تبرز الحنكة السياسية والدبلوماسية للسلطان الحسن الأول، حيث اشترط دفع المبلغ على أقساط لأنه يعلم أن دفعه في مرة واحدة سيضرب كثيراً بميزانية الدولة، لاسيما في تلك الفترة التي كان يعاني فيها المغرب ضائقة اقتصادية بسبب انتشار الانتفاضات القبلية، ورفض العديد من القبائل دفع الضرائب زد على ذلك ما كانت تسببه الحماية القنصلية من أضرار على بيت المال.
- (٥٠) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٥١-٤٧.
- (٥١) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٥٥-٥٢.
- (٥٢) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للنشر المتحددين، الطبعة الأولى، ص ٣١٨.
- (٥٣) نور الدين بلحداد، **التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (١٩٣٤-١٨٦٠)**، م. س. ص ١٤٩.
- (٥٤) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، الجزء الثالث، ص ٣١٢.
- (١٧) جامع بيضا، **المنارات الاستعمارية للنيل من السيادة المغربية على تخوم الصحراوية (عهد السلطان مولاي الحسن)**، ضمن أعمال ندوة **الصحراء المغربية من خلال التراث والتاريخ**، الطبعة الأولى، المحمدية، ٢٠٠٢، ص ٤٩.
- (18) D. Jacques-meunie : le maroc saharien des origines A1670. Bibliothèque Klinckseick, 1982 36 p.576.
- (١٩) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٧٩.
- (٢٠) عبد الرحمان بن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناش**، الجزء الثالث، نشر مكتبة الثقافة الدينية وتوزيع دار الأمل الطبعة الأولى، ص ٤٨٤-٤٨٣.
- (٢١) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٨٦.
- (٢٢) عبد الحق ذهبي، **قضية الصحراء المغربية ومخطط التسوية الأممي دراسة قانونية وسياسية في مسارات النسوية في نطاق المنظمات الدولية**، الطبعة الأولى، الرباط ٢٠٠٣، ص ٣٩.
- (٢٣) نور الدين بلحداد، **مقاومة قبائل الصحراء للتسرب الإسباني في سواحل وادي الذهب (١٨٨٤-١٩٠٠م)**، ضمن أعمال ندوة علمية حول **مقاومة إقليم وادي الذهب من أجل الاستقلال واستكمال الوحدة الترابية للمملكة**، منشورات المنووية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ص ٥٧-٥٨.
- (٢٤) إن ما يثير الانتباه والتساؤل هو أن جهود السلطان الحسن الأول للحفاظ على وحدة البلاد في الجنوب قد فاقت نظيرتها في الشمال، إذ كان الإسبان خلال هذه الفترة يتحركون بحرية نسبية ويعملون على احتلال العديد من الجزر المغربية في البحر الأبيض المتوسط.
- (٢٥) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ٩٢.
- (٢٦) نور الدين بلحداد، **التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (١٩٣٤-١٨٦٠)**، ص ٢٨٧.
- (٢٧) نور الدين بلحداد، **التسرب الإسباني إلى شواطئ الصحراء المغربية (١٩٣٤-١٨٦٠)**، م. س. ص ١٠٢.
- (٢٨) محمد بوكبوط، **مقاومة الهوامش الصراوي للاستعمار (١٩٣٨-١٨٨٠) صفحات مجهولة من صمود قبائل التخوم الشرقية من تافيلالت إلى واد نول**، دار أبي رقرق للطباعة والنشر، الرباط مارس، ٢٠٠٥، ص ٢٣.
- (٢٩) تعمدت فرنسا عدم تحديد الحدود بدقة، إذ جاء في الفصل الرابع ما يلي: "أن الصحراء لا حد فيها بين الجانبين، لكونها لا تحترق وإنما هي فقط مرعى لعرب الإيباليتين التي تنزل فيها وتنتفع بخصبها ومائها".
- (٣٠) محمد خير فارس، **المسألة المغربية ١٩١٢-١٩٠٠**، الطبعة الثانية بيروت، ص ٧.
- (٣١) أحد أبرز زعماء المقاومة الجزائرية والذي التفت حوله قبائل واحات الزوزفانة وفكيك لصد الزحف الاستعماري الفرنسي الذي بات يهدد منطقة القصور، منذ ١٨٨١.
- (٣٢) محمد خير فارس، **المسألة المغربية ١٩١٢-١٩٠٠**، م. س. ص ٧٢.
- (٣٣) نور الدين بلحداد، **السلطان مولاي الحسن الأول والسيادة المغربية على الأقاليم الجنوبية ١٨٧٣-١٨٩٤**، م. س. ص ١٠٧.
- (٣٤) تمكن من خداع قبائل أولاد دليم، إذ ادعى أنه مسلم جزائري ويسمى عبد المالك، كان ينطق الشهادتين، ويحسن الوضوء وشعائر الصلاة، وتزوج من إحدى بنات أولاد دليم لمدة خمسة أشهر، قبل أن يفتضح أمره ويتم تصفيته.